

المؤتمر العالمي الثاني لبديع الزمان سعيد النورسي
“بديع الزمان سعيد النورسي واعادة بناء العالم الاسلامي في القرن العشرين”
27 - 29 ايلول 1992 استانبول - تركيا

الذاكرة والشعور الجماعي

أ.د. شريف ماردين*

جامعة امريكا - واشنطن

الولايات المتحدة الامريكية

إن العمق الاجتماعي لبديع الزمان ونجاحه يرجعان إلى استيعابه للفكر الإسلامي الغني من الناحية الدينية والثقافية.

قبل كل شيء أود أن أبين كيف اتجهت إلى تناول موضوع بديع الزمان سعيد النورسي. إن كل إنسان عندما يقترب من موضوع ما فإنه يقيم الأحداث من زاوية خاصة به. وان بيان خواص هذه النظرة علاوة على انه من الأدب العلمي فإنه يقوم بوظيفة التنبيه للقارئ او للسامع. ولكي أقوم بإيفاء هذا الجانب العلمي وأبينه بكل وضوح فاني سأبدأ هذا الموضوع ببيان وبشرح.

من الممكن العثور على محورين في كل محاولة دينية تتكون وتتشكل عن طريق الوحي او الالهام. فمن جهة هناك الوجود الالهي وأوامره والمعارف الصادرة عنه حول النظم التي وضعها للكون، ومن جهة اخرى هناك الرغبة حول قيام الانسان بتنفيذ واطاعة هذه الأوامر. على أن الإنسان لا يستطيع - في غالب الاحوال - التطبيق الكامل لهذه الاوامر المبلغة اليه في شكلها المثالي ودون اي قصور. واحد الاسباب الكامنة وراء هذا هو ان المهم في اثناء نزول الوحي هو وجوب تذكر هذا الوحي وحفظه اكثر من وجوب فهمه. فعند نزول الوحي يتكلم به ويبلغ ويعبر عنه ويكرر وذلك قبل ان يكون موضوع بحثه وشرحه وفهمه وارداً. ففهم المعاني الواردة في رسالة الوحي وتفسيره يبدأ في مرحلة ثانية. ومثال ذلك فان المرحلة الاولى عند رسول الله صلى الله عليه وسلم كانت مرحلة التبليغ، والمرحلة الثانية التي تأتي بعد الاولى مباشرة هي مرحلة تبليغ وايصال معاني الوحي الالهي الى الآخرين في اسلوب انساني. اما المرحلة الثالثة فهي

مرحلة فهم هذه المعاني من قبل المؤمنين، ولأن المؤمنين أناس فانهم لا يستطيعون النفوذ الى اعماق هذه المعاني اذ تحدهم طبيعتهم الانسانية. وباختصار فهناك فرق بين ماهية رسالة الوحي وبين اشكال فهم الناس لهذا الوحي. وبديع الزمان يشرح على الدوام في كثير من بياناته وبشكل بليغ الاعجاز القرآني "اي المعاني العميقة المحاطة بالاسرار" وكيف ان الناس لا يتساوون في فهم هذا الاعجاز وفي فهم معاني الوحي.

فاذا تذكرنا هذه المراحل للوحي الالهي فسنلاحظ انها تشكل ساحتين من ساحات العلم. فالساحة الاولى للعلم هي التي تتعامل مع تحليل مفاهيم الرسالة ككلام ديني صرف. واسم هذا الفرع من العلم في اللغات الغربية هو "Theology" واقرب فرع من العلوم الاسلامية الذي يناظر هذا المفهوم هو "الفقه" وفي مقابل هذا فهناك فرع ثانٍ للعلم يقوم ببحث وتدقيق اشكال المعاني التي يضيفها الناس على الرسالة الالهية عندما يتقبلونها منطلقين في ذلك من طبيعتهم الانسانية ومن طبيعة مجتمعاتهم التي يعيشون فيها، واحياناً قد تكون هذه المعاني غير متوقعة ابداً. واسم هذا الفرع من العلم هو "علم اجتماع الاديان" وحسب تعبير "ويبر Weber" فان علم اجتماع الاديان يقوم بفحص وتدقيق الشكل الذي يسبغه المؤمنون على الدين.

واذا كان علينا ان نسوق مثلاً فاننا نقول بان موضوع "التوحيد" في الاسلام موضوع يدخل في ساحة "Theology" من جانب آخر فان بحث وتدقيق تحول المدارس من مدارس قائمة على اسس غير محترفة في البداية الى مدارس محترفة مع مرور الوقت يدخل ضمن ساحة علم اجتماع الاديان.

اما كيفية تناولي موضوع بديع الزمان سعيد النورسي فقد كانت من زاوية علم اجتماع الاديان الذي هو ساحة تخصصي. فمثلاً مواضيع حركة التجديد لبديع الزمان ومدى انعكاس هذه الحركة، والوضع الاجتماعي والبيئة الاجتماعية للأشخاص الاوائل الذين نشروا افكاره، وكيف كانت افكار بديع الزمان تعني بالنسبة لهم عالماً جديداً كانوا يبحثون عنه، وكيف اثر عليه الجو السياسي الذي واجهه... كل هذه المواضيع تدخل ضمن ساحة علم اجتماع الاديان وهي ضمن المواضيع التي ادرسها وادققها.

وفي اعم مفهوم فقد كانت كيفية تشكل افكار بديع الزمان في الظروف الاقتصادية والاجتماعية والسياسية في عهده تُظهر مشاكل ذات اهمية بالغة من وجهة نظري. وانا اظن بان بحثي هذه لم تكن دون فائدة لعلماء الدين. فعندما أقوم بشرح طراز تصرف بديع الزمان

لاشخاص هم في داخل حركة النور فقد اكون بذلك مهدياً لعلمائهم مفتاحاً صغيراً.

مسألة الهوية والرابطة مع الماضي

اود وفي الاجتماع الافتتاحي تناول اضافة قدمتها افكار بديع الزمان لمسألة اجتماعية مهمة وهي مسألة الماهية والعلاقة او الرابطة مع الماضي.

ان على كل مجتمع ان تحتفظ بعلاقتها مع الماضي حية ونضرة في ذاكرتها. فالأمس ضروري لفهم الحاضر، ومن اهم وسائل هذا التذكر والتذكير في العالم الاسلامي هو العيش في الماضي. والشكل الاسلامي المذهل لهذا هو العيش بين الاموات، فزيارة الموتى التي تحتل محلاً مهماً في الاسلام شكل من الاشكال المقبولة لهذا في الاسلام. وفي التفكير الاسلامي الحديث قد تنتقد هذه الزيارات، الا انها تؤمن في الحقيقة استمرار التاريخ حياً كسلسلة اجيال.

ظهرت في القاهرة مؤخراً رسالة دكتوراه تبحث في الحياة اليومية لمدينة اولياء كبيرة اسمها "القرافة" فيما بين القرن الحادي عشر والخامس عشر الميلادي. والذي فهمناه من هذه الرسالة ان زيارة الاموات كانت تشكل للمؤمنين فرصة راحة ووسيلة لكي يعيش المؤمنون دينهم بالامل والفرح وليس بالحزن، وان هذه الزيارات كانت تقوي الروابط الانسانية بين الافراد.

ومن جهة اخرى فان هذه الزيارات ربطت الوجدان الجماعي والذاكرة الجماعية بشئ اسمى، وهو ربط هذه الذاكرة بفضائل وسمو هؤلاء الموتى. وفي القرن العشرين عندما بدأت المدنية المادية ببعثرة الذاكرة الجماعية للامة الاسلامية ظهرت مشكلة طالما وقف عندها بديع الزمان، وهي مشكلة الهوية لدى المسلمين والفكرة القومية التي نمت بنمو المدنية المادية حاولت سحب علاقة المسلمين مع ماضيهم الى تاريخ اقدم، اذ حاولت احلال "اوغوزكاغان" 1 الذي عاش في عصور اقدم محل الاولياء. وهذه المحاولة وضعت مفهوماً غامضاً ومفهوماً مجرداً للمواطن الحالي بدلاً من الثروة الاسلامية الغنية في هذا الخصوص.

ان عمق علم الاجتماع لدى بديع الزمان ونجاحه في هذا الموضوع يتركز في فهمه السريع لمدى غنى الثروة الاسلامية الثقافية وموضعها في هذا الخصوص. فكما ورد في مثال القرافة فان الزيارة التي كانت تؤمنها هذه المحلة لم تكن زيارة رسمية تحف بها البروتوكولات، بل هي زيارة تزيد من الغنى المعنوي المخبوء في طيات النفس الانسانية، وهذا الغنى النفسي يتلائم وينسجم ككل متكامل مع الحياة اليومية للمسلم.

"السجل اليومي" للمواطن

الالوان في "القرافة" هي الالوان المفضلة في بيت المؤمن وفي احاديث السمر وفي القصص الشعبية. وروائح "القرافة" وعطورها هي البخور وروائح الورد والقرنفل الواردة في الثقافة الاسلامية. اما الجدران والقبور فتزين بكتابات هي جزء من التذهيب. المهم هنا ان تبقى الثقافة والوجدان الجماعي او ماطلقنا عليه اسم "الشعور الجماعي" كمادة رابطة تؤمن مثل هذه الارضية الجميلة وتؤمن بقاءها حية.

يمكن عد القومية التركية ناجحة في خلال الخمسين سنة الاخيرة بنسبة نجاحها في تلقين فكرة القومية التركية. ولكن احد الجوانب الناقصة لقوميتنا هو اهمالها لما نجحت القرافة في القرن الخامس عشر من الابقاء على النسيج الثقافي وعلى الوظيفة الاجتماعية وعلى فعاليتها. ونستطيع ان نعمم اكثر فنقول: ان ما قام به الاسلام حتى العهد الجمهوري من تنظيم "السجل اليومي" للمواطن هو ما لم تلتفت اليه الجمهورية، واهمالها هذا يتجلى في تركها هذا "السجل اليومي" مفتوحاً بشكل كبير مع ان الثقافة الاسلامية قامت بتنظيم تفصيلي لهذا السجل اليومي. وتعبير "السجل اليومي" الذي استعمله هنا مصطلح اتى به العالم الاجتماعي الفرنسي " Michel de Certeau " الى علم الاجتماع. لاشرح ذلك:

يرى هذا العالم الفرنسي ان المصطلحات التي تنظم حياة الانسان ليست مصطلحات صعبة الفهم ومصطلحات مجردة مثل مصطلحات "السياسة الخارجية" او "النظم الاقتصادية" ان مايشكل قوام حياة الانسان وقوام حياته اليومية هو المئات من التفاصيل الصغيرة والدقيقة من التصرفات والاداب ومقاييس الاخلاق والجمال. والمثال الكلاسيكي هو كتاب "احياء علوم الدين" الذي وضعه الامام حامد الغزالي الذي كان يعرف جيداً تفاصيل الحياة اليومية للمسلم فوضع هذه التفاصيل ضمن كتابه اعلاه الذي اصبح نوعاً من كتب "آداب المعاشرة" للمسلم.

ولقد ذكرت في كتابي الذي ألفته حول بديع الزمان. بانه خلافاً للغزالي لم يقف طويلاً حول المعاملات والعبادات الاسلامية بل ركز بحثه وهمه على مايجعل المسلمين يدركون ويفهمون دينهم. ان النقطة التي تتجمع في بؤرتها المسألة باجمعها والتي اعداها مهمة جداً هي ان المسلم المعاصر في حاجة اليوم الى "خريطة" ترشده وتوجهه في حياته اليومية وقد فهم سعيد النورسي هذه الحاجة.

وهذه "الخريطة" يجب أن تعين له علاقته مع ماضيه وتنظم "حاضره" وتكون مرشداً له . ومن هذه الزاوية يجب تقييم كتب الكاتب المصري "سيد قطب" إذ يظهر في كتاباته وبشكل واضح

هدف تأمين خارطة جماعية للمسلمين. واطن أننا جميعاً نعرف وجود تخطيط للتطور الاجتماعي التاريخي في افكار بديع الزمان. ولكن الى جانب هذا فقد استهدفت افكاره تعيين اتجاه واستقامة للمسلمين في المجتمع الحديث.

قد لا يكون من الإنصاف التفكير بان محاولات سعيد النورسي كانت متوجهة فقط لملء الفراغ في الفكرة الكمالية.

فالقضية تكمن في المشاكل العامة للمدنية الصناعية ولل فلسفة العقلية "Rasyonalism". ان الاهتمام الذي بذله بديع الزمان حول "المعنى" وحول "المفهوم" وتقديمه الاسلام كدين يجب فهمه يكفي لظهار هذا بشكل تلقائي. ولكن من الممكن العثور في كتاباته على كثير من الامثلة التي تظهر بان هذا الموضوع ليس مشكلة خاصة بتركيا بل هو مشكلة عامة في الدنيا.

ان سبب اختياري للكتابة عن سيرته يعود الى سعة ابعاد فكره الاسلامي والى كونه قد فهم مشاكل هذا العالم قبل غيره.

* أ.د. شريف ماردين "جامعة امريكا - واشنطن الولايات المتحدة الامريكية": ولد عام 1927 في اسطنبول. واکمل دراسته الجامعية سنة 1948 في جامعة ستانفورد في ولاية كاليفورنيا في الولايات المتحدة الامريكية. ثم عين في كلية العلوم السياسية للجامعة نفسها كمعيد. وبقي هناك حتى بلغ درجة الاستاذ "البروفسور" وفي سنة 1973 انتقل الى جامعة "بوغاز إجي" في اسطنبول.

له مقالات وكتب عديدة نشرها باللغة الانجليزية منها "الدين والايولوجية" و "جون تورك" حيث ترجمها الى اللغة اليابانية والتركية. وهو قريب الشيخ "ابو لولا المارديني". ونزولاً عند توصية المفكر التركي المعروف "جميل مريج" فقد قضى عشر سنوات في بحث ودراسة لبديع الزمان سعيد النورسي وللحركة النورية من منظور علم الاجتماع ونشر دراسته الموسومة بـ"قضية بديع الزمان سعيد النورسي: الدين والتغير الاجتماعي في تركيا" في شهر كانون الاول لسنة 1989 في امريكا. وترجم هذا الكتاب الى اللغة التركية في شهر تشرين الاول لسنة 1992. وهو يلقي حالياً محاضرات حول سعيد النورسي وحول الحركة النورية في باريس ولندن وامريكا. كما نشر دراسته الموسومة بـ"بديع الزمان سعيد النورسي: اداء رسالة" في المجلة الانكليزية Religious Organization and Religious. التي تصدر في لندن.